فوضى الأدب فى مصر

للدكتور محمد صبرى

تكلمت فى مقال سابق عن القبعة التى تقع على عاتق مجلاتنا الأدبية الكبرى ، من جراء تيسير نشر مقالات « الكتّاب » معروفين بالفهم السقيم والقباوة . وقد خشى قوم أن نرمى إلى الحد من حرية النقد ، والواقع أنه لا نقد فى مصر

قد نقرأ فى الصحف من آونة لأخرى مقالاً قيماً مفعماً بالرزانة والاعتدال ، وسطا بين الأفراط والتفريط ، ولكن الشاذ لا يمكن اتخاذه قاعدة فى الحكم على الأشياء . وقل أن تجد كاتباً فى نقده الكتب يدرسها ويحللها كما يفعل كتاب الغرب . وأكثر ما نرى الإفراط فى المدح تارة ، وفى الذم طوراً . ومن الغريب أن كتابة أولئك النقاد لا يمكن « مناقشتها » لأنها لا تستند إلى منطق من الذوق أو الفهم ، وإنما تستند إلى شهوة تدفع صاحبها إلى الكتابة إرضاء لغاية شخصية أو إبراء لغلة حسد أو حقد تأكل صدره

وخير لأولئك النفر أن يريحوا أنفسهم قليلاً فإنهم لن يبلغوا الجبال طولاً ، ولن يخرقوا السماء أو الأرض بقلمهم ، ولن يقف الفلك الدوّار من جراء ما يكتبون

وفى مصر « كتّاب » كثيرون يتوهمون أنهم فى مقدورهم أن يأخذوا الشهرة غلاباً ، وأن يسخروا التاريخ لتسجيل ماتكتبه عنهم الصحف ، أو ما يكتبونه هم عن أنفسهم فى الصحف ، وما يتحلونه من صفات ، كأن يدّعوا أنهم من « كبار » الكتاب . وإنى لأذكر بهذه المناسبة أن ممثلاً أعلن عن نفسه مرة أنه « الممثل العالمى » وأعلن عن شوقى فى الوقت نفسه أنه « شاعر النيل » . ولما كان العالم يسع النيل والسين والطونة والرين ومئات الأنهار والبلاد أخذت شخصية شاعرنا تتضاءل شيئاً فشيئاً ، بينما وقف الممثل كالمارد الضخم يطأ بإحدى رجليه المشرق وبالأخرى المغرب ...

وقد وقع كثيرون من رجال السياسة فى عين الخطأ الذى وقع فيه بعض رجال الأدب ، فأصبحوا يعتقدون أن الدعاية هى كل شىء ، وأنها « تصنع » التاريخ كأنما كان التاريخ عبداً « تلقنه » وتأمره بكتابة ما تريد فيطيع ... ناسين أن التاريخ هو أمس واليوم وغداً ، وأن الفلك يدور ، وأنه فى دورته يغربل الحوادث والرجال ، ويضع الأمور فى نصابها ، وأن حياة الأمم مكونة من أجيال فإذا ظلم جيل أنصف جيل ، وأن الناس متباينون فى طبائعهم ومذاهبهم ، وأن هذا التباين نعمة لا نقمة لأنه يكفل نظام البقاء ويمنع الاستبداد بالحياة والشهرة واحتكارهما واغتصاب العظمة وما إليها

ولا شك أن الذوق الأدبى قد ارتفع مستواه فى مصر ، ولكن مصر يُعْوزها ذلك الجمهور المستنير الذى يزين بلاد الغرب ، وبعبارة أدق وأبين أن أكبر نقص يعتور حياتنا الاجتماعية هو عدم وجود نخبة راقية من رجال العلم والأدب والسياسة وهو ما يسمى élite ، هذا فيما يتعلق بالقمة ، أما فيما يتعلق بالقاعدة فيلاحظ عدم وجود طبقة متوسطة . وكل حياة سياسية أو أدبية لا تستند إلى هذه النخبة وإلى تلك الطبقة ، فهى حياة مختلة التوازن

فعدم وجود النخبة الكثيرة العدد مثلاً يفسح المجال أولاً للتحاسد والنزاع بين الأفراد بعضهم وبعض فى دائرتهم الصيقة المحدودة ، ويفسح للأدعياء طريق التسلل فى قطرهم وقلب المقاييس والأوضاع

وكلنا نذكر أن زعيماً كبيراً مرض ذات يوم ، وكان مرضه مرض موت ، فهرع إليه من الأطباء الحابل والنابل والصغير والكبير ... وكانت دقة الحالة تستدعى بالطبع أن لا يذهب إليه إلا الراسخ فى صناعته المقدم على أهلها ، وأن يتنحى الصغير للكبير عن مكانه دون النظر إلى رتبة يحملها أو لون سياسى يتباهى به . وسبب هذه الفوضى هو كما قلنا عدم وجود نخبة وافية من الأطباء تؤلف كتلة متزنة فى نظامها

وهذه الفوضى نشاهدها فى الأدب كما نشاهدها فى الطب ونشاهدها فى جميع أنواع الحياة العامة فى مصر . والعجيب أن الأدعياء يجدون صحفاً ومجلات تنشر لهم . والأدعياء فى مصر فريقان : فريق المتأدبين الأغبياء الذين يحاولون الوصول بكل الوسائل ظناً منهم أن مجرد الحصول على « شهادة » أو مجرد